



العقل العربي 51

تأليف: رافائيل باتاي

ترجمة: علي الحارس

الفصل الثاني عشر ازدواجية اللغة، التهميش، التذبذب

5. الشخصية الازدواجية

لاحظ عدد من المفكرين والكتاب العرب المعاصرين أخطار الهامشية في الشخصية العربية وقدموا تحليلاتهم حولها. ومن هؤلاء كان الكاتب عبدالله القصيمي في كتابه (هذه هي الأغلال) المطبوع في القاهرة عام 1946. وقدم فيه تشخيصا للهامشية باستفاضة كالتالي وردت في الصفحات السابقة. ويبيّن أن الشخصية العربية تتجاوزها قوتان شديدتان متعاكستان. وكنا في ما سبق قد أوردنا بأن هاتين القوتين هما شعوران متعاكسان: الالتصاق بالثقافة العربية التقليدية من جهة، والانجذاب إلى الثقافة الغربية التقليدية من جهة أخرى. أما القصيمي فيرى أن هاتين القوتين هما: الرغبة بالتمسك بالطرق القديمة، أو كما يدعوها «كمال الأقدمين». وهذا يستدعي رفضا للتقدم؛ و«التطور المتنامي لمجرى الحياة». ويصف القصيمي الفرد العالق بين هاتين القوتين بأنه يصبح «منقسما على نفسه». وهكذا لا يبدو أن القصيمي يدرك ظاهرة الهامشية عند العرب فحسب. وإنما يبدو بأنه قد أحس بالموقف المتذبذب الذي يبديه العربي الهامشي تجاه قوى التقدم، وهي التي حددها هو نفسه من قبل بأنها مستمدة من الغرب. فمن جهة يحاول القصيمي إنكار التقدم ورفض التغريب. ومن جهة أخرى. تجده متشربا بهذه التوجهات بما يكفي لجعلها قوة تجذبه بالشدة ذاتها التي تجذبه بها القوى التقليدية. وبوصوله إلى هذا التشخيص لا يتردد القصيمي في تقديم الدواء: التبنى الكامل للتوجه الإنساني التقدمي. والتخلص من «التراث الساق» للماضي. والاعتراف بأن «الوجود الإنساني بأكمله والحضارات الإنسانية كافة مؤسسة على مبدأ التنمية...»¹

(1) عبدالله القصيمي: هذه هي الأغلال: ص309.

الفصل الثاني عشر: ازدواجية اللغة، الهامشية، التذبذب

وبعد بضع سنين من ظهور كتاب القصيمي، ظهرت في بغداد دراسة أخرى كتبها علي الوردي. وعلى الرغم من أنها جاءت تحمل عنوان (شخصية الفرد العراقي) بزعم أنها تدرس شخصية العربي العراقي بالخاصة، فإن نتائجها قابلة لأن تعمم على العرب ككل. وفي هذه الدراسة يعلق الوردي على هامشية العربي العراقي، لكنها هامشية تختلف عما ناقشناه في ما سبق. حيث يسجل الوردي أن الشخصية العراقية، والوضع النفسي للعرب عامة، تتميز بازدواجية مترسخة، ففي العراق توجد مظاهر تدل على نظامين للقيم يتنافسان على حياة ولاء الفرد. وهما: القيم القديمة للفئات الاجتماعية المستقرة، وقيم البدو الرحل. وبينما تعلي قيم المدينة أو الاستقرار من شأن عدة صفات كالصبر وتحمل المشقات والانقياد والدهاء، فإن القيم البدوية تشدد على الشجاعة وعزة النفس والتباهي والجشع. إن هذا الانقسام البدوي-الحضري أساسي في تكوين الشخصية العراقية، ولكنه ليس الانقسام الوحيد فيها. بل هنالك عدد من ثنائيات الازدواج الأخرى: كالإبداع والمحافظة، والإخلاص والنفاق. أضف إلى ذلك النزاع بين السنة والشيعة؛ وبين التقاليد الثورية بمثلها البطولية الديمقراطية، والاتجاه الأخلاقي المعتد بنفسه، والبيئة التجارية، والجشع.

ومع أن الوردي يقدم ملاحظاته بطريقة تجعلها تبدو غير منطبقة إلا على المناطق الحضرية، فإن هامشية تلاحظ في الريف العراقي والعربي تشبه ما يذكره الوردي. ما عدا أن القرية تشدد على أهمية العمل الشاق والصبر والانقياد والدهاء، بينما تحتل قيم البداوة كالشجاعة والفخر المرتبة الثانية. وعليه، فإن هذا الخط الفاصل الخاص يمتد بين المكون البدوي والمكون الحضري. إن الهامشية بين القيم الحضرية ومثيلتها البدوية موجودة في الريف والمدينة كليهما؛ ولا تنعدم إلا في صفوف البدو الذين لا يزالون ملتزمين بقيمهم التقليدية ولم يبدووا باكتساب القيم الحضرية. كما ينظر أهالي المدن والأرياف جميعهم باحتقار إلى البدو لنمط عيشهم البدائي، ولكنهم يشعرون نحوهم بالإعجاب لما يتصفون به من شجاعة وعزة نفس وكرم وشرف وولاء للقبيلة... إلخ.

الفصل الثاني عشر: ازدواجية اللغة، الهامشية، التذبذب

هشام شرابي كاتب عربي آخر مرس الوتر الحساس للهامشية عند الجيل العربي الجديد الذي تقع عليه مهمة قيادة ركب المستقبل. فرأى أن المثقف العربي الشاب يستمد «إلهامه وقوته من ثقافة أخرى [غربية] لم يتلاءم تماما مع مناهجها وقيمها». ثم يمضي ليقول:

ليس هنالك تخلُّ عن أوروبا. وتتضح هذه الحقيقة من خلال ما يبديه هذا الجيل من ازدواجية في النفسية واللغة والثقافة. إن هذا الجيل في وضع يحتم عليه أن يحكم على نفسه ويقرر خياراته ويتصرف وفق مفاهيم وقيم غير مترسخة في تقاليده الخاصة بل في تقاليد لم يتم التلاؤم معها تماما.¹

وهو يرى أن حل المشكلة التي نشأت عن الازدواجية النفسية واللغوية والثقافية عند هؤلاء المثقفين الشباب يكمن في تلاؤم كامل مع القيم والمفاهيم الغربية.

كما أدرك الروائيون العرب أيضا ظاهرة التذبذب وما يرافقها من أعراض باعتبارها داء مستشرياً. وحول هذا يقول الروائي السوري-اللبناني حليم بركات على لسان إحدى شخصيات رواياته:

إننا شعب فقد هويته وإحساسه بالرجولة. كل واحد منا يعاني من شخصية مزدوجة، وخاصة في لبنان. نحن عرب ومع ذلك نتلقى التعليم مرة من فرنسا، ومرة من الانغلو ساكسون. ومرة من روحانيات الشرق. هذا خليط غريب جدا. علينا أن نعود لنبحث عن جذورنا. إننا جميعا مصابون بانفصام الشخصية...²

(1) هشام شرابي: المواقف السياسية والفكرية للجيل العربي الشاب؛ ضمن كتاب (الشرق الأوسط العربي وإفريقيا الإسلامية) للكاتب تيبور كيريكيس (Tibor Kerekes)؛ ص 60-61. وسيتم في الفصل السادس عشر من هذا الكتاب مناقشة ظاهرة تذبذب موقف العرب إزاء تاريخهم ذاته.
(2) حليم بركات: عودة الطائر إلى البحر؛ ص 55.

الفصل الثاني عشر: ازدواجية اللغة، الهامشية، التذبذب

إن الاستخدام السطحي لمصطلحات علم النفس الغربية كـ«الشخصية المزدوجة» و«انفصام الشخصية» ومزجها مع مفاهيم تقليدية عربية كـ«الرجولة» و«الجدور» التاريخية يشير بوضوح إلى أن بطل الرواية، وربما المؤلف ذاته، يعاني حقا من الهامشية والتذبذب.

وبحسب مبادئ المدرسة الفرويدية في علم النفس، تتمثل الخطوة الأولى لتخليص المريض من التذبذب وآثاره المدمرة في أن يكون واعيا بجدوره النفسية. ومع الإلمام بأية فروق قد توجد عند المقارنة، لا يمكن لمشكلة التذبذب عند العرب أن تحل إلا إذا أصبح منشؤها النفسي معلوما عند العرب أنفسهم. ومن مؤلفات الكتاب والمفكرين العرب أمثال بركات والقصيمي نجد أن هذه الخطوة الرئيسية قد أنجزت. وما أن يصبح هذا المنهج الذي اختطه هؤلاء معلوما لدى المثقفين العرب، ومستوعبا لديهم مع ما في ذلك من صعوبة، فستكون هنالك فرصة جيدة لانحسار هذه الظاهرة تدريجيا. فما بدأ أول الأمر كصراع عاطفي يمزق الفرد في اتجاهين متعاكسين بحسب تعبير القصيمي، سيتحول عندها إلى مركب يتكون من ثقافتين، وهذا المركب ينبغي أن يفعل فعله في عقل من يحمله لخلق ترتيب ثقافي جديد يتميز بالإبداع والروعة، ومن أجل تحرير المهارات والطاقة لقدح شرارة فتوحات جديدة في مجالات عديدة من أفق التقدم الثقافي.